الحركة الدائرية للتغير الحضاري عند ابن خلدون.

بوخدوني صبيحة.
جامعة: سعد دحلب – البليدة

ملخص المداخلة:

لقد تناول كثير من الفلاسفة والمفكرين في اختلاف وتنوع اتجاهات ومجالات تخصصهم وخاصة الاجتماعيين منهم حول موضوعات التغير الحضاري، منذ القدم وحتى وقتنا الراهن، وتعددت وجهات نظرة علماء الاجتماع تبعا لاختلاف التوجهات الإيديولوجية والنظرية التي قادت دراساتهم المناهج التي استخدموها في تفسير هذه الظاهرة، فالتغير الحضاري يحتل مكانه محورية في بناء النظرية الاجتماعية المعاصرة نظرا لأنه من سمات المجتمعات. وفي المقابل نجد البعض الأخر من العلماء ينظر إلى موضوع التغير الحضاري على أنه أحد موضوعات علم الاجتماع، ولعل هنا الاختلاف في وجهات نظر الباحثين والمفكرين، الذي يرجع إلى أن التغير الحضاري عملية معقدة، فنجد أنه لا يمكن القول بأن التغير عملية تتعلق بتغير البنية الاجتماعية وحدها أو بالتنظيمات السياسية والاقتصادية وحدها ولكن هناك تفاعل دائم ومستمر بين كل الجوانب التي تؤدي في النهاية إلى حدوث ما يسمى بالتغير الحضاري، وقد تكون هذه الدينامكية هي سبيلها إلى النمو والتقدم،كما اتخذ اتجاها سريع في عالمنا المعاصر، وأصبحنا نعيش في عالم لا يستطيع فيه أي شخص أن يلاحق التغيرات التي تحدث فيه يوما بعد يوم، ومن الطبيعي أن يواجه علم الاجتماع هذه التغيرات المتلاحقة باهتمام علمي لموضوع التغير الحضاري.

بحيث يحتل ابن خلدون في التراث العربي الإسلامي وفي الفكر الغربي المعاصر،مكانة متميزة،فهو أحد الرواد الذين شيدوا البناء الفكري لصرح العلوم الإنسانية، وعلى رأسها علم الاجتماع، ويُنظر إليه على أنه صاحب رؤية حضارية خاصة، ولاسيما فيما يتعلق بدراسة التاريخ البشري، والمجتمع الإنساني والعمران الحضاري،ويتجاوز بعض الدارسين له ذلك فيتحدثون عن عبقريته في الفكر الاقتصادي والتربوي والسياسي وغير ذلك من الحقول المعرفية.

ولقد عمل ابن خلدون مع موضوع التغير الحضاري من خلال التتبع الدقيق لعمر الدولة باعتبارها موجهة الفعل السياسي والاجتماعي، نشوءا وتطورا، وضعفا وانهيارا.و يؤكد ابن خلدون أن التغيير سمة ثابتة من سنن العمران البشري ولازمة أساسية من لوازمه ولا يحصل تطور الأفراد والمجتمعات.

وفي هذا السياق ومن خلال هذا أردنا من هاته المداخلة توضيح أهم الأفكار التي جاء بها ابن خلدون في فهم حركية الحضارة والمراحل التي تمر بها وأهم العوامل التي تؤثر فيها.

تمهيد:

لقد تناول كثير من الفلاسفة والمفكرين في اختلاف وتنوع اتجاهات ومجالات تخصصهم وخاصة الاجتماعيين منهم حول موضوع الحضارة وتطورها،فمنذ القدم وحتى وقتنا الراهن،و تعددت وجهات نظرة علماء الاجتماع تبعا لاختلاف التوجهات الإيديولوجية والنظرية، فموضوع الحضارة يحتل مكانه محورية في بناء النظرية الاجتماعية المعاصرة نظرا لأنها من سمات المجتمعات. وفي المقابل نجد البعض الأخر من العلماء ينظر إلى أنه أحد موضوعات علم الاجتماع الكثيرة، ولعل هنا الاختلاف في وجهات نظر الباحثين والمفكرين، الذي يرجع إلى أنها عملية معقدة، فنجد أنه لا يمكن القول بأنها مرتبطة بالبنية الاجتماعية وحدها أو بالتنظيمات السياسية والاقتصادية وحدها ولكن هناك تفاعل دائم ومستمر بين كل الجوانب التي تؤدي في النهاية إلى حدوث ما يسمى بالتطور الحضاري بحيث أصبحنا نعيش في عالم لا يستطيع فيه أي شخص أن يلاحق التغيرات التي تحدث في المجتمع يوما بعد يوم.

أولا– مفهوم الحضارة عند ابن خلدون:

تعني الحضارة أو المدنية عند العرب الإقامة في الحواضر والمدن وما يتبع تلك الإقامة من أشكال التطور وأساليب العمران والتقدم، ولما كانت لفظة ''الحضارة'' مشتقة من الحضر ولفظة ''المدنية'' مشتقة من المدينة فلا فرق بين الحضارة والمدنية. ولذلك كان **ابن خلدون** يستخدم صيغة التمدن بمعنى التحضر، بل إنه كان يرى أن المدنية هي الاجتماع ذاته فهو يقول'' :الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية ''وفي اللغات الأوروبية الحديثة تم اشتقاق كلمة ''حضارة ''civilisation من الكلمة اللاتينية ''مدينة ''civitas فالحضارة إذن مفهوم إنساني عالمي، غير أن المفاهيم الخاصة والمعتقدات هي التي تميز حضارة عن أخرى.

إن بعض المفكرين المسلمين يفرقون بين الحضارة والمدنية، فهم يرون أن الحضارة هي العقائد والمفاهيم والأفكار التي تعتنقها الأمة، أما المدنية فهي أساليب العمران وأشكال التطور المادي، وهي عالمية لا تختص بها أمة دون غيرها من الأمم، بل إنها تنتشر وتتناقلها الشعوب بغض النظر عن مصدرها. حيث تشكل المدينة والظواهر الحضرية بكونها حقيقة اقتصادية وإقليمية وسياسية وحضرية وتاريخية، ومنذ زمن بعيد مجالا هاما ومحور اهتمام كثير من الباحثين في التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع، الذين اهتموا بدراسة ظاهرة المدن وتطورها وأنماطها[1]. بالإضافة إلى دراسة تأثير الحياة الحضرية على الأفعال الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية وأنماط المدنيات ومعالمها المختلفة.

فلقد ظهرت الاهتمامات الأولى لدراسة المدينة منذ عهد الإغريق ضمن ما يمكن تسميته بنظرية الحتمية البيئية القديمة التي يمثلها بعض فلاسفة الإغريق أمثال (هيبوقراط Hippocrate) القرن الخامس قبل الميلاد (430 ق.م) الذي حاول في كتابه (الجو والمناخ والأقاليم) أن يبين نظرته إلى الفروق بين سكان المناطق الحية، وسكان الأقاليم السهبية الجافة من حيث الصفات الجسدية والنفسية والصفات الشخصية، كما حاول أن يربط بين البيئة وظهور بعض العادات والقيم الثقافية وكذلك الاهتمام بالأدوار الاجتماعية[2] كما في كتاب أرسطو (322 – 384 ق.م) (السياسة) تأكيده

---

[1] سليفان ألماند: **المدينة محل نقاش**. مجلة معالم، العدد 3، دار النشر مارينور، المطبعة ج.م.ج، بوزريعة. ص.10.

[2] عبد الفتاح محمد وهبة: **جغرافية الإنسان**. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1972. ص 10.

على الارتباط بين المناخ وطبائع الشعوب والعادات البشرية العالقة بأذهان الكثير من المفكرين وقد ذهب أرسطو إلى أكثر من ذلك في تأكيد فكرته حينما حاول أن يقدم تصنيفا للمجتمعات البشرية حسب الظروف المكانية[1].أما إسطرابون فقد أبدى اهتماما كبيرا بأثر التضاريس الأرضية والمناخ والعلاقات المكانية في إيطاليا وأثرها على ظهور مدينة روما[2]،و قد اختفت كل هذه الأفكار خلال العصور الوسطي في أوروبا المسيحية لاعتقاد الناس فيما جاء في التوراة في اختلاف المناخ والتضاريس وتباين البشر في الشكل والطباع من حكمة الله ولا نقاش في حكمة الله. أما في بلاد المسلمين فقد اهتم الكثير من الكتاب والفلاسفة والجغرافيين المسلمين بدراسة اثر البيئة في نشأة المدن ونجد هذا (مروج الذهب) للمسعودي وفي (عجاب المخلوقات) للقزويني[3]، ولعل إبن خلدون (1406-1332) أفضل من عالج الموضوع في (المقدمة) بدراسته نشأة المدن والأمصار التي ضمتها آراءه حول اثر المناخ على طبائع الشعوب، وأحوالهم الاجتماعية (النظم الاجتماعية، الجماعات البشرية -الأدوار الاجتماعية وطبيعة العلاقة التي تسود بين تلك النظم والتنظيمات والجماعات الاجتماعية) والثقافية (القيم والمعايير فضلا عن الجانب المادي من الثقافة المتمثل في العمارة والتكنولوجيا)

وأثر العصبية في تكوين الأمم والممالك ومدنياتها، كما اهتم بشرح مقومات المدينة الحضرية وأثر البدو في تدهورها أو مدها بعناصر جديدة[4].

ثانيا-النظرية الدائرية للحضارة عند ابن خلدون:

وهي النظرية التي تشبّه المجتمع للإنساني في تطوره بالكائن الحي (ولادة، نمو، نضج، موت) وهي عبارة عن دوائر مستقلة، تتشابه في بدايتها ونهايتها، ولذلك يقترب هذا الفهم الدورة الحضارية من الفهم الحيوي للمجتمع.أو ما يسمى "باتجاهات التذبذب اللاتجاهي حيث تمر المجتمعات بارتفاعات وانخفاضات حضارية، ومراحل نمو ثم مراحل تدهور" [5].

ومن أهم رواد هذه النظرية الذين عالجوا أسباب مراحل وخصائص كل دورة تطرأ على الثقافات والحضارات الإنسانية، وهو **أزوالد شبنجلر** في كتابه (انهيار الحضارة الغربية1918) والذي يرى أن الحضارات تشبه الكائنات الحية، وتمر بمراحل دائرية في تطورها من ولادة، نضوج وموت، تماما كما يمر الإنسان بهذه المراحل، لكن بينما يمتد عمر الإنسان ليصل مائة سنة على أكبر تقدير"[6] نجده يحدد عمر كل حضارة بألف عام، كما أنّ لكل حضارة رمزا معينا وقيما خلقية خاصة بها لأنها صادرة عن روحها الخاصة،" ويقول: ليست هناك أخلاق إنسانية عامة، وإنما لكل حضارة طرازها في

---

[1] فادية عمر الجولاني: **علم الاجتماع الحضري**. مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1993، ص. 65.

[2] نفس المرجع، ص. 66.

[3] عبد الفتاح محمد وهيبة: **جغرافية الإنسان**. مرجع سابق، ص. 10.

[4] أدريس خضير: **التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية**. ديوان المطبوعات الجامعية، ط.2، الجزائر، ص.ص. 106-110.

[5] إس. سي.دوب، **التغير الاجتماعي**، (تر: عبد الهادي الجوهري)، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1986.، ص 74.

[6] مجد الدين عمر خيري خمش، **علم الاجتماع، الموضوع والمنهج**، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط3، 2005، ص 211.

الفن، هذه الأخلاق الصادرة عنها صادقة دائما في داخل إطار هذه الحضارة، أما خارج هذا الإطار فإنها باطلة دائما، والفلسفة كالأخلاق تابعة لروح الحضارة التي تنشأ فيها".

"والحضارة عنده انبعاث روحي لجماعة من الناس يربطهم مفهوم متقارب للوجود، فينعكس ذلك على ألوان نشاطهم المختلفة في الفن والدين والفلسفة والسياسة والحرب والاقتصاد، وبهذا يكون مفهوم كل جماعة متميزا عن غيره في مجال التغير والانبعاث الروحي"[1].

-وميز **شبنجلر** بين ثماني حضارات كبرى، وهي: المصرية، واليابانية، والهندية، والصينية، والمكسيكية، واليونانية الكلاسيكية، والعربية، والغربية"[2].

-"ويتسم منهج شبنجلر بالجبرية، حيث يرى أن لكل حضارة صيرورة واتجاها وزمانا ومصيرا وتاريخا، وأن الحضارة أسيرة مصيرها"[3].

-ولكل حضارة خصوصيتها تميزها عن كافة الحضارات الأخرى "لا يمكن أن تكون ثمة حضارتان متماثلتان كل التماثل، وذلك لأن تاريخ كل حضارة هو تاريخ مستقل وقائم بذاته ولا يتأثر بتاريخ أي حضارة غير حضارته،... كما أن لكل حضارة عناصر خاصة بها وأخرى غريبة عنها، وأن هذه العناصر الخاصة تحددها النفس الأولية لكل حضارة، ولذلك يعتقد شبنجلر بأنه لمن المستحيل على فرد أو أفراد ينتمون إلى إحدى الحضارات أن يفهموا فهما صحيحا حضارة أخرى غير حضارتهم، وذلك بسبب العناصر الغريبة عنهم، وهذه العناصر التي تتشكل منها الحضارة الأخرى"[4].

-وشبه **ازوالد سبنجلر** المراحل الأربع للحضارة بالفصول الأربعة للسنة مبينا أن لكل مرحلة خصائص ومميزات تشبه خصائص ومميزات كل فصل وما يصاحبها من تغيرات تطرأ على الطبيعة، حاول أن يستكشف عوامل صعودها وهبوطها وتبين له أنها جميعا مرت بمراحل إنشاء ونمو، ونضج، ثم انحدار [5]: وهذا ما لاحظه عند دراسته للحضارات الست (المصرية، والهندية، والصينية، والعربية، والغربية).

فصل الربيع: الذي يعد فترة البطولة، حيث التغني بالبطولة كما في شعر الملاحم والأساطير..

فصل الصيف: فيتصف بظهور القيادات المتوثبة الطموح، إنها فترة ظهور وازدهار دولة المدنية.

فصل الخريف: ويمثل الخريف مرحلة النضج الكامل للينابيع الروحية الثقافية والبوادر الأولى للشيخوخة والإرهاق، وفيها الملكيات المركزة والفلسفة التي تتحدى الدين والقيم السائدة باسم التنوير.

---

[1] نورة خالد السعد، المرجع السابق، ص 84.

[2] مجد الدين عمر وخيري خمش، المرجع السابق، ص212.

[3] سليمان الخطيب، **فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر)**،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993، ص63.

[4] نورة خالد السعد، المرجع السابق، ص 85-86.

[5] يوسف خضور، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق**، المرجع السابق،ص 78.

فصل الشتاء: ويتمثل الانتقال إلى الشتاء حين يتخذ الفن طابعا غامضا سريا، وحين تتخذ الفلسفة طابع الشك واللاإرادية، ويسود في السياسة عصر الإمبراطوريات والاستعمار والطغيان والسياسيين، في الشتاء تفقد الحضارة روحها المبدعة، وتصبح مجرد مدينة يتجلى أفضل ما تقدمه في تطبيق العلم على الصناعة.[1]

فنظرية شبنجلر SPENGLER "تفسر الحضارة باعتبارها ثمرة لعبقرية خاصة تتسم عصرا معينا بميسم ابتداع أساسي، كما هو الشأن في (علم الجبر) بالنسبة إلى الحضارة العربية"[2]،ومن هذه المراحل نجد أنه عندما يتراجع الدين تطغى الفلسفة على النفوس والعلم على الصناعة، وتتراجع العناصر الروحية والثقافية التي أسست لقيام الحضارة، فتنهار هذه الحضارة، ويعتبر أن التاريخ ماهر إلا إحدى صور تغيير الطاقة في المجتمع، فبزوغ حضارة جديدة ليس سوى تحول من صورة طاقة خام إلى طاقة أخرى أكثر نفعا واستفادة للمجتمع البشري، وكلما زاد معامل تحول الطاقة الخام إلى طاقة نافعة في أي مجتمع، ازداد هذا المجتمع تقدما عبر التاريخ.

والعلاقات الاجتماعية تختلف في طبيعتها جذريا عن حركة الأجسام الجوامد، فالعلاقات الاجتماعية غير ملموسة، متعددة الأسباب، معقدة، سريعة التغير بحيث يصعب إخضاعها لقوانين ميكانيكية، ولذلك تعجز المدرسة الميكانيكية عن تفسير مجرى تاريخ وتغير المجتمعات الإنسانية.[3]

أما نظرية العلامة عبد الرحمن ابن خلدون (1332-1406) عن **الدورة الحضارية**"، والتعاقب الدوري للحضارات في تاريخ الفكر الإنساني من حيث بعدها الاجتماعي والفلسفي العام، فقد توصل إلى الاقتناع بفكرة التعاقب في الحضارة وقارن في دائرية التغيير بين الإنسان والمجتمع،و بدراساته العلمية والاجتماعية والتاريخية، اهتم بتحليل ودراسة المجتمعات، والعلاقات بين الأفراد والمجتمع، ما يتصل بها من مظاهر، ما يطرأ عليها من تغيرات سياسية، اقتصادية، ثقافية، أخلاقية، دينية،...

إن تصويره لشكل الدائري للحضارة، يبدأ من نقطة معينة، ثم يسير في عدّة مراحل إلى أن ينتهي إلى نفس النقطة التي بدأ منها. ابن خلدون في مؤلفه: مقدمة ابن خلدون المسمى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الكبر)، التي ترى أنّ **الدولة تمر بأطوار متتالية**، تبدأ بدورة البداوة والعصبية، ثم دور استبداد الحكام بالملك، ثم طور الفراغ لتحصيل ثمرات الملك، ثم طور القناعة والمسالمة، وبعدها دور الإسراف والتبذير، مما يؤدي إلى عوامل الانحلال والتدهور والانهيار[4].

---

[1] سليمان الخطيب، المرجع السابق، ص 64.

[2] مالك بن نبي، **شروط النهضة** (تر عمر كاصل مسقاوي وعبد الصور شاهين)، دار الفكر، الجزائر ط4، 1987، ص 71.

[3] عبد الحليم رضا عبد العال، **التغير الاجتماعي (و هيكلة المجتمعات المعاصرة)**، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 2005، ص 22 ص23.

[4] معن خليل العمر، **التغير الاجتماعي**، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 2004، ص 34.

فالمجتمع . حسب ابن خلدون . يشبه الفرد،له عمر ينتهي، وبذلك ينتهي المجتمع. ويقول ذلك في مقدمته: " إن العمران كله، من بداوة وحضارة وملك،له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكوّنات، عمرا محسوسا."[1]

نجد في نظرية ابن خلدون عن الدورة الحضارية "أن المجتمع والدولة يمران بمراحل معينة تبدأ بالميلاد وتسير إلى النضج ثم تتجه إلى الشيخوخة، وتتسم كل مرحلة بصفات معينة تطبعها بطابع خاص يفرقها عن سواها من المراحل[2]"

فمن خلال دراسته التحليلية للدولة من نشأتها، فازدهارها ثم انهيارها تصل أنها تمر بعدة أطوار ولكل طور خصائص وأدوار، وأكد على تلازم مفهومي الدولة والعمران(الحضارة) "فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة متعذر"ويشير كذلك "وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة، إذ أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع الملك" [3] وقد قسم ابن خلدون الدولة على أطوار شبهها بالأطوار التي يمر بها.و يمر المجتمع عند ابن خلدون بمراحل ثلاث هي[4]:

1-**مرحلة النشأة والتكوين**: فاعتبر مرحلة النشأة والتكوين في جسم الإنسان تقابلها المرحلة الأولى في الدولة، تلك المرحلة التي تقوم على العصبية سواء أكانت عصبية الدين أم عصبية الدم وهي تظهر قي مرحلة البداوة، ويقتصر الأفراد فيها على الضروري من أحوالهم المعيشية، وتتميز هذه المرحلة بخشونة العيش، وتوحش الأفراد وبسالتهم، كما تتميز بوجود العصبيات. في المستوى الأول العصبية تكون تنطوي على ثلاث عناصر متطابقة[5]:

عنصر بيئوي ⟵ البادية

عنصر إحيائي البيولوجي ⟵ النسب أو التزاوج داخل القبيلة

عنصر أخلاقي ⟵ الوقار الذي يتمتع به كبير القبيلة

2-**مرحلة النضج والاكتمال**: كما اعتبر مرحلة النضج والرجولة في جسم الإنسان مقابلة للمرحلة الثانية في الدولة وهي مرحلة الملك، وفيها يتحول المجتمع من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الثروة والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وفيها يحدث تركيز السلطة في يد شخص أو أسرة أو أمة واحدة بعد أن كانت عامة وشائعة. ونواه "ابن خلدون" بالفوارق الثقافية القائمة بين الأعراب والحضر مسترعيا الانتباه أكثر من مرة إلى أن هذه

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**. دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 356.

[2] نورة خالد السعد، **التغير الاجتماعي في فكر مالك بن (دراسة في بناء النظرية الاجتماعية)**، دار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1997، ص79.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**،المرجع السابق،،ص 174.

[4] محمد الهادي عفيفي، **التربية والتغير الثقافي**، مكتبة لأنجلو المصرية، القاهرة، 1975، ص 17.

[5] إسماعيل قباري محمد، **علم الاجتماع الحضري ومشكلات التهجير والتغير** والتمية، منشاة المعارف بالسكندرية، القاهرة، 1985، ص 190.

الأخيرة تأتي بالضرورة نتيجة الأولى حيث يقول "فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما"[1]، وينوه إلى أن البدو يقتصرون على الضروريات أما الحضر فيلجؤون إلى الكماليات [2]

3-**مرحلة الهرم والشيخوخة**: والهرم في جسم الإنسان وهي مرحلة الترف والنعيم أو الحضارة، وفيها ينسى الأفراد عهد البداوة والخشونة، وتسقط العصبية، ويبلغ الترف ذروته، وينسون الحماية والمدافعة، ويؤدي النعيم بالدولة إلى الانقراض والزوال تسبقه حالة من الضعف والاستكانة وفساد الخلق تسمى الاضمحلال، وينتهي الأمر بالمجتمع إلى الهرم.[3] والواقع أن هذه الأجيال الثلاثة في الحقيقة، حتى تستمر الدولة، أما الجيل الرابع فلا حياة ولا بقاء" [4] وأساس الملك وقيام الدولة عنده هما العصبية والدين، وفي فصل يقول "أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على العصبية" من المقدمة يؤكد أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذين في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، كما أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم[5] فإذا كانا قويان قويت الدولة وازدهرت بينما إذا تراجعا وضعفا ضعفت الدولة وآلت للسقوط والانهيار، فالعصبية عند ابن خلدون

هي "النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة"[6] (العصبية هي نزعة طبيعية في البشر البشر "تؤدي إلى الاتحاد والالتحام، بين أفراد النسب الواحد لأنها تحملهم على التعاضد والتناصر تستلزم استماتة كل واحد منهم دون صاحبه... [7]. فإذا استقر الملك، بدأت العصبية تضعف شيئا فشيئا، فيبتعد الناس عن حياة البداوة، ويدخلون في مرحلة الحضارة، حيث ينشغلون بإشباع الشهوات والتمتع بها نتيجة هذه الحضارة من ألوان الترف في المأكل والمشرب والملبس ويفقدون بذلك طبائع التوحش والشجاعة وشدة البأس، وينسون الحماية، ويحتاجون لمن يدافع عنهم، ويصرفون من الكماليات إلى درجة تؤدي إلى إفساد الحياة والمجتمع، وبذلك يصبحون عرضة للغزو من الخارج، وهذه هي مرحلة الهرم التي تؤذن بانحلال المجتمع لتبدأ الدورة من جديد.[8] و يبدو من خلال ذلك، أن دورة التاريخ تعيد نفسها دائما دائما على الوتيرة نفسها، وهذا يدل على أن الحضارة غير أبدية بل هي مجرد مرحلة زمنية تمر كبقية المراحل.

ويتبين من خلال أفكار ابن خلدون بان القضايا ذات الصلة بنهوض وتدهور الحضارة تلك التي تتمثل بالعلاقة بين الحياة الحضرية وحياة الصحراء. بحيث تأثر كل من الحياتين على الطبيعة الإنسانية حيث يساعد المثال التالي على

---

[1] عبد الغني مغربي، **الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون**، (تر: محمد شريف بن دالي حسين)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 1988، ص 68.

[2] نفس المرجع، ص 70.

[3] نورة خالد السعد، المرجع السابق، ص80.

[4] نفس المرجع، ص 81-82.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**،المرجع السابق، ص 160-159.

[6] نفس المرجع، ص 132.

[7] سليمان الخطيب، المرجع السابق، ص 55.

[8] محمد السويدي، **علم الاجتماع السياسي، ميدانه وقضاياه**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1990، ص 26.

فهم دورة الحضارات. وقد قدم ابن خلدون مفهوماً متميزاً لهذه العلاقة. فهو يقول أن: "البدو يقيدون أنفسهم بالحصول على الحاجات الأساسية في حياتهم ولا يستطيعون تجاوزها، فيما الشعوب الحضرية تهتم بالحصول على وسائل الراحة والرفاهية في محيطها وعاداتها. بالتأكيد إن الضروريات الأساسية تسبق في الأهمية وسائل الراحة والرفاهية. الحاجات الأساسية، في هذا السياق، هي الأولية، فيما الرفاهية ثانوية. وبالتالي فإن البدو هم الأساس ويسبقون المدن والشعوب الحضرية.

فالإنسان يسعى أولاً للضروريات الأساسية. ولا يبدأ البحث عن وسائل الراحة والرفاهية إلا بعد أن يحصل على الضروريات الأساسية. إن شظف العيش في الصحراء يسبق نعومة الحياة الحضرية. ولهذا نجد أن التحول للحياة الحضرية هو الهدف الذي يطمح إليه البدو... هذه هي الحال مع كل القبائل البدوية. أما الشعوب الحضرية في المقابل، فليست لديها الرغبة في الحياة الصحراوية، ما لم تكن مدفوعة بضرورة طارئة أو عدم مقدرتها على التعايش مع شركائها في حياة المدينة. كما أن الشعوب الحضرية أكثر اهتماماً بكل أنواع المتع. وهي معتادة على الرفاهية والنجاح في الأشغال الدنيوية والتلذذ بالمتع الدنيوية. ولهذا نجد نفوسها مشوبة بكل الصفات المكروهة والشريرة. وكلما كانت هذه الصفات أكثر في نفوسهم، كلما أصبحت المسالك والوسائل الطيبة أبعد عنهم. وبالفعل فإنهم يخسرون أي إحساس بضبط النفس. لاحقاً يتضح أن الحياة الحضرية تمثل المرحلة الأخيرة من الحضارة والنقطة التي تبدأ منها سيرها نحو السقوط. كما تشكل أيضاً المرحلة الأخيرة من الشرور والبعد عن الطيبة. ومن الواضح أن البدو أكثر ميلاً نحو أن يكونوا طيبين من الشعوب الحضرية. كما يرى ابن خلدون أن السبب في تغيير المجتمع يرجع إلى تغيير الحكام ورجال السلطة في المجتمع وإن كل جيل جديد يكون تابعا لعادات حكامه ويتغير ممن سبق من أجيال في بعض النواحي، ومن خلال عملية تعاقب الحكام والأجيال، يحدث نوع من المزج والخلط بين القديم والجديد مما يؤدي إلى حدوث بعض التغيرات بسبب الصراع بين القديم والجديد، وهذه التغيرات قد تختلف من مجتمع إلى أخر، باختلاف الزمان والمكان وطبيعة السلطة فيه[1].

وقد جعل ابن خلدون الاستقرار أول شرط في نشوء الحضارة، حيث تظهر الحاجة إلى القوانين التي تنظم حقوق الملكية وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض وتحدد نظام العقوبات وما إلى ذلك مما يعتبر أساسا لنشوء الدولة. بحيث كانت المسألة الأساسية التي استحوذت على فكر ابن خلدون: كيف تنشأ الدول؟ وما عوامل ازدهارها؟ وما أسباب هرمها؟

ويشرح ابن خلدون هذه الأطوار فيقول في مقدمته " وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار:

-الطور الأول: طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك...

-الطور الثاني: طور الاستبداد على القوم والانفراد بالملك ومنعهم من المساهمة والمشاركة

-الطور الثالث: طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت...

[1] عبد المجيد مزيان: **النظرية الاقتصادية عن ابن خلدون وأسسها في الفكر الإسلامي والواقع الاجتماعي**، مؤسسة الوحدة،الكويت 1981، ص 247.

-الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ.

والمجتمعات الإنسانية في نظرية ابن خلدون وإن كانت تخضع بالضرورة لتتابع هذه الأدوار، فإن خضوعها ليس بدرجة واحدة، كما أن المدة التي تتطلبها كل مرحلة تختلف عن الأخرى، بمعنى أن بعض المجتمعات قد تبقى طويلا في مرحلة الطفولة أو في مرحلة النضج أو في مرحلة الهرم، وقد يختتم مجتمع ما حياته في المرحلة الأولى أو الثانية، وقد يقاوم نهايته في إحدى هذه المراحل ولقد شبه أعمار الدول بأعمار الأشخاص وأن كل طور من أطوار (الميلاد والنضج والاضمحلال) يستغرق أربعين سنة، وقد يمتد عمر الدولة في حركتها الحضارية إلى مائة وعشرين سنة[1].

ويقول ابن خلدون في ذلك "إلا أنّ الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته قياسا على قوله تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة"[2]. وقد قدّر "ابن خلدون " للدولة عمرا يساوي ثلاثة أجيال، أي تعادل 120 عاما. منذ نشوئها لحين زوالها وتكون على ثلاث مراحل، كل مرحلة 40 سنة تعيد نفس الدورة السالفة[3]. فقد ورد في الفصل الرابع عشر في المقدمة، تحت عنوان: '' في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص.''، ما يلي:

" وإنما قلنا أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال (...)، لأن الجيل الأول، لا يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشّها (...)، والجيل الثاني، تحوّل حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب (...)، ومن عزّ الاستطالة إلى ذل الاستكانة (...)، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العزّ والعصبية (...)، فيحتاج صاحب الدولة إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر الموالي (...)، حتى يأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت."[4]

وقد كان تتبع ابن خلدون للتطورات التي تطرأ على الدولة على أساس مدخلين أساسيين:

- أ – التطورات التي تحدث في الدولة، من ناحية الأموال العامة والأخلاق.
- ب– التطورات التي تحدث في الدولة من ناحية كبر حجمها واتساع نطاقها.

وفي فصل "أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على العصبية" من المقدمة يؤكد أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذين في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، كما أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم[5]

فيمثل الدين في مرحلة الحضارة الشرارة أو المركب الكيميائي الذي يضفي على المعادلة تأثيرها والدفع بالمجتمع إلى الدخول في السيرورة التاريخ،ولذلك يرى ابن خلدون أن الطور الأول للدولة هو البداوة ولكن البدو سرعان ما يتطورون

---

[1] نورة خالد السعد، المرجع السابق، ص80.

[2] سورة الأحقاف، الآية 15

[3] معن خليل العمر، **التغير الاجتماعي**، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 2004، ص35.

[4] عبد الرحمن ابن خلدون، المرجع السابق، ص 171 -172

[5] نفس المرجع، ص 160-159.

إذ يتحول حالهم من البداوة إلى الحضارة والعمران بفعل الملك مع الجيل الثاني والحضارة إنما هي ''تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوبه ومذاهب من المطابخ والملابس والمباني..... فصار طور الحضارة من الملك يتبع طور البداوة ''فتعريف ابن خلدون للحضارة لا يشمل المفاهيم والعقائد التي تقوم على أساسها الدولة لأن ذلك يحتاج إلى تخصيص.

ويرى ابن خلدون أنه ما من حضارة إلا واعتمدت على علوم ومعارف الحضارات التي سبقتها، فهو يقول'' :وأهل الدول أبدا يقلدون في طور الحضارة وأحوالها الدول السابقة قبلهم، فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم .''، ولذلك يقول ابن خلدون: إن من طبيعة الملك الدعة والسكون والترف الذي هو غاية الحضارة وهو يزيد الدولة في بدايتها قوة، إذ تتباهى المجتمعات المتحضرة به ولكنه أيضاً هو العلة الأساسية لبداية الانحلال، وهو المؤذن بخراب العمران. فالحضارة تفسد طباع البداوة إذ يتجه أصحاب الدولة إلى الإسراف في التنعم ويزهدون في العمل ويركنون إلى الدعة والسكون ويخلدون إلى الراحة والشراب ويكثرون من النساء فتزول هيبة السلطة من النفوس وتكثر القلاقل والفتن وتظهر المعارضة ويتقوى الأعداء فيفلت زمام الأمور وتبدأ الدولة في السقوط فتظهر جماعة أخرى من البدو تسعى إلى الملك والريادة فتحل محلهم. والواقع أن هذا الأخذ لا يعيب الأمة المتحضرة ولا يحط من شأنها فهو ظاهرة عالمية وهو يدل على مرونة الحضارة الناشئة وإيجابيتها. فالترف مظهر الحضارة، وهو هادمها أيضاً وهو غاية العمران ولكنه مؤذن بنهايته أيضاً، فالحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وإنها مؤذنة بفساده. وقد اكد رسول الله (صل الله عليه وسلم) هذه السنّةْ للدورة الحضارية الخالدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خير هذه الأمة القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ؛ ثم الذين يلونهم ". وتتجلى آثار الحضارة المفسدة للعمران في حياة البذخ والترف إذ سرعان ما ينسى سكان الجيل الثالث عهد الخشونة والبداوة فيفقدون بذلك حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته فتفسد أخلاقهم وطباعهم فينقلب التناصر إلى تنافر والتعاضد إلى تخاذل والكفاح المشترك من أجل المصلحة المشتركة إلى نزاع وصراع من أجل مكاسب شخصية ومصالح خاصة، فيظهر الظلم إلى جانب الترف، وهما مظهران من مظاهر خراب العمران(الحضارة)'وسقوط الدولة.

الشكل: يوضح الرؤية الحضارية عند ابن خلدون

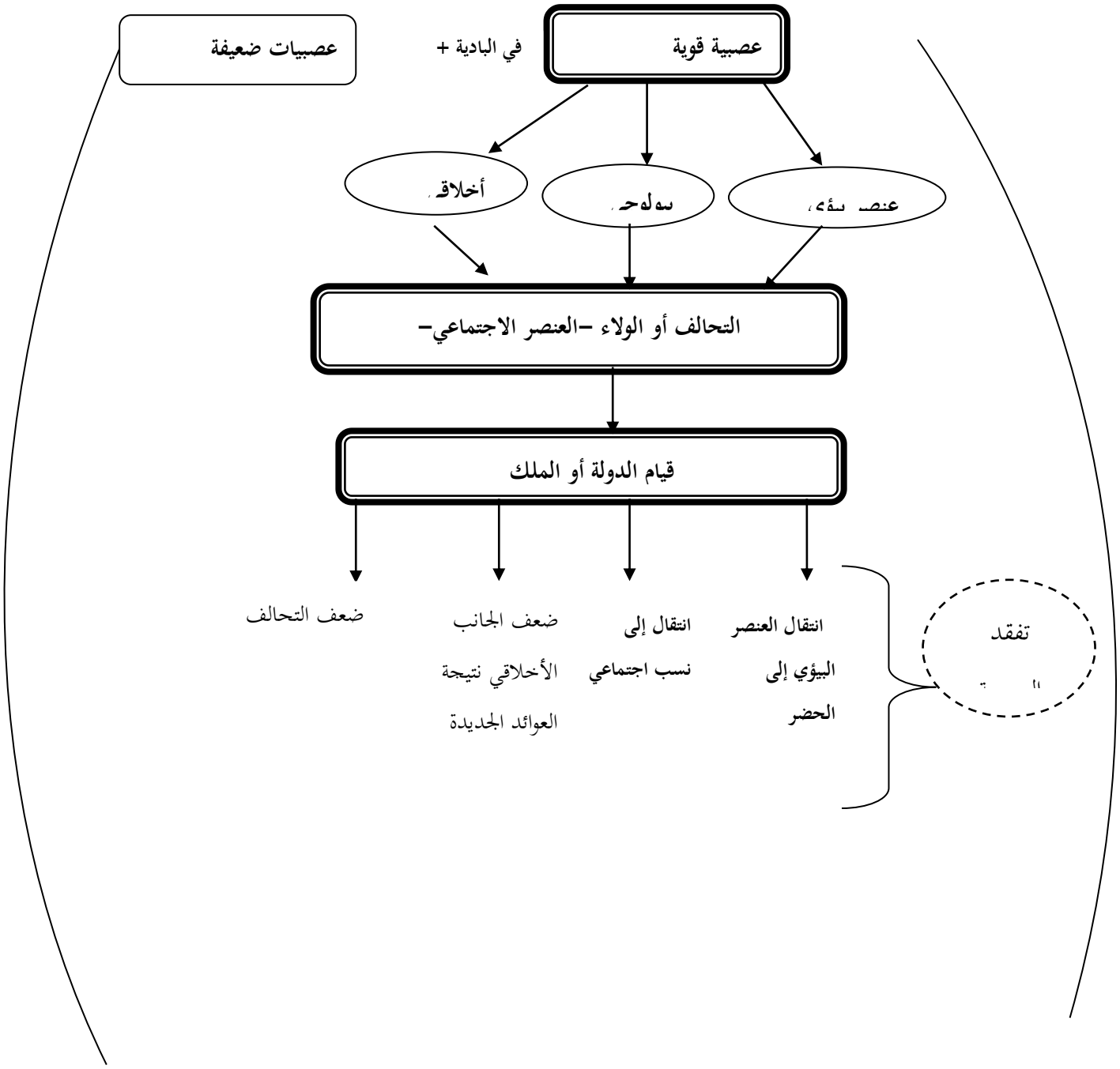

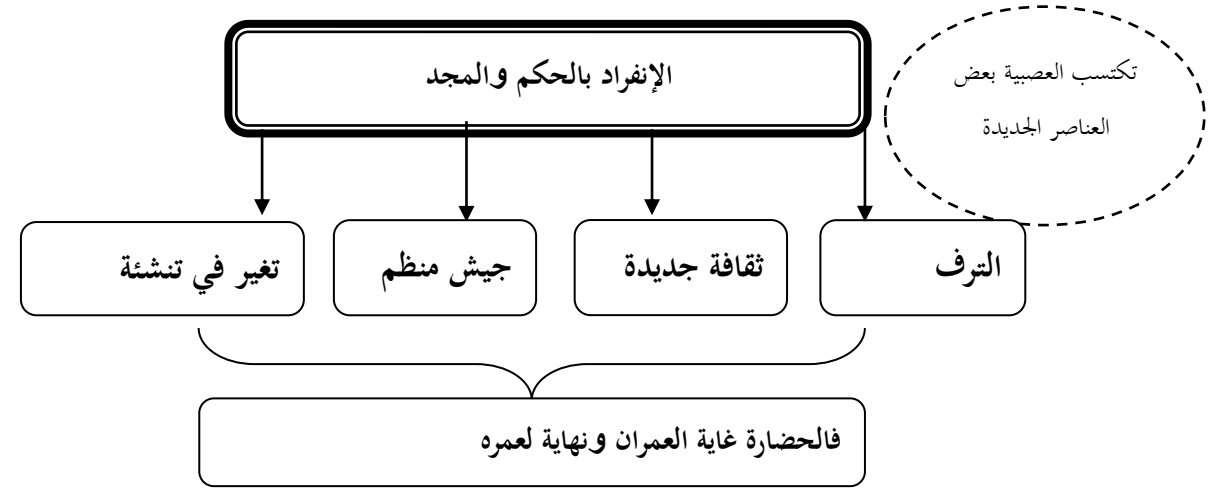

فنهوض وتدهور الحضارة تمثل العلاقة بين الحياة الحضرية والبدوية

نقد نظرية ابن خلدون :

يتضح من خلال العرض السابق لأهم ما جاءت به نظرية ابن خلدون، أنّ النظرية ركزت على دور القادة والحكام في حدوث التغير الدوري للحضارة المجتمع، وهذا يحدث أحيانا في بعض الفترات لبعض المجتمعات إلا أن من الانتقادات التي وجهت إليها أنها أرجعت كل التغيرات التي تحدث في المجتمع إلى عامل واحد، يتمثل في رجال الحكم والسلطة، وهذا التفسير لم يعد مقبولا، لتداخل وترابط كل جوانب الحياة في المجتمع والنظم القائمة فيه، كما أن المجتمعات تختلف في مراحل تقدمها وتطورها عن المراحل القديمة.

– ركز "ابن خلدون" على الأسباب التي تؤدي إلى المراحل السابقة أكثر من تركيزه على المراحل في حدّ ذاتها. بمعنى أنه لا يؤكد عملية الدورة في ضوء السلسلة الزمنية ولا يحدد مجتمعا معينا ينتقل من البداوة إلى الملك، فالحضارة والهرم.

–كما نفهم من رأي «ابن خلدون "، أنه من الممكن، أن يرجع المجتمع، من مرحلة الترف إلى مرحلة التحضّر إذا ما أدرك نفسه قبل سقوطه في مرحلة التدهور".

نستخلص أيضا أنه لم يحدد الفترة الزمنية التي يمكن أن تستمر فيها كل مرحلة من المراحل الأربعة السابقة.[1]

ومن الواضح أن أصحاب النظريات الدائرية يتفقون على فكرة أن التاريخ يعيد نفسه،وأن الخبرات التاريخية للمجتمعات يمكن أن تتكرر.ولكنهم –مع ذلك– يختلفون في رؤيتهم لهذه الحركة الدائرية لحضارات المجتمعات.فبعضهم يحدد مراحل ثابتة تمر بها كل المجتمعات كما في نظرية شبنجلر أو نظرية سروكين،بينما يميل البعض الآخر إلى الحديث عن دورات يمكن أن تتكرر هنا وهناك دون تحديد مراحل ثابتة

ولهذه الانتقادات وغيرها باتت التطورية بصياغاتها التقليدية غير مقبولة إلى حد كبير،ومن ثم فقد انتعشت رؤى بديلة لا تركز على التطور بقدر ما تركز على الواقع المعاصر للمجتمعات كالرؤية الوظيفية.

[1] شاريف عكاشة، **الصّراع الحضاري في العالم الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1990، ص 106-105.

خاتمة:

لقد كان ظهور العلامة العربي ابن خلدون في القرن الرابع عشر بمثابة الانعطافة الكبرى التي غيرت أسلوب التفكير ومنهج النظر في شؤون العمران البشري والاجتماع الإنساني،وقد وضع ابن خلدون لهذا الاجتماع جملة من الحاجات هي بمثابة الأركان التي يتكىء عليها الاجتماع البشري وفي التراث العربي الإسلامي وفي الفكر الغربي المعاصر،مكانة متميزة ويُنظر إليه على أنه صاحب رؤية حضارية خاصة،ولاسيما فيما يتعلق بدراسة التاريخ البشري،والمجتمع الإنساني والعمران الحضاري،ويتجاوز بعض الدارسين له ذلك فيتحدثون عن عبقريته في الفكر الاقتصادي والتربوي والسياسي وغير ذلك من الحقول المعرفية.

بحيث ان هناك اختلاف بين الدارسون من القدامى والمحدثين في تفسير تدهور الحضارة العربية الإسلامية فبنسبة لابن خلدون طور طبيعي، فالتمدن غاية البداوة، ولكن البدو عندما يتطورون في أساليب العيش ويتقدمون في الصنائع فإنهم ينتهون إلى الفناء، لأن الحضارة تحمل في طياتها بذور الفساد، فتهرم الدولة وتسقط، والهرم عند ابن خلدون مسالة طبيعية في الدولة إذ يقول: وهو من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواءها ولا ارتفاعها لندها أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل وهكذا تفسح الدولة المنهارة المجال لقيام دولة جديدة تمر بنفس الأطوار والمراحل.

فازدهار الحضارة مرتبط بازدهار العمران وأن عدوها الحقيقي يكمن في حياة البذخ والترف المؤدي إلى الانهيار. والواقع أن هذا لا يعيب الأمة المتحضرة ولا يحط من شأنها فهو ظاهرة عالمية وهو يدل على مرونة الحضارة الناشئة وإيجابيتها.

قائمة المراجع:

1-ألماند سليفان: **المدينة محل نقاش**. مجلة معالم، العدد 3، دار النشر مارينور، المطبعة ج.م.ج، بوزريعة.

2-ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمة**. دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

3-السعد خالد نورة، **التغير الاجتماعي في فكر مالك بن (دراسة في بناء النظرية الاجتماعية)**، دار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1997.

4-الجولاني عمر فادية: **علم الاجتماع الحضري**. القاهرة (مصر): مؤسسة شباب الجامعة، 1993.

5-إس. سي.دوب، **التغير الاجتماعي**، (تر: عبد الهادي الجوهري)، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1986.

6-السويدي محمد، **علم الاجتماع السياسي، ميدانه وقضاياه**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1990.

7-الخطيب سليمان، **فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر)**،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993.

8-بن نبي مالك، شروط النهضة (تر عمر كاصل مسقاوي وعبد الصور شاهين)، دار الفكر، الجزائر ط4، 1987

9-خضير أدريس: **التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية**. ديوان المطبوعات الجامعية، ط.2، الجزائر.

10-خضور يوسف، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق** منشورات جامعة دمشق، ط2، 2002-2003.

11-عبد الفتاح محمد وهبة: **جغرافية الإنسان**. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1972.

12-عبد الحليم رضا عبد العال، **التغير الاجتماعي (و هيكلة المجتمعات المعاصرة)**، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 2005.

13-عمر خيري مجد الدين، **علم الاجتماع، الموضوع والمنهج**، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط3، 2005.

14-عفيفي الهادي محمد، **التربية والتغير الثقافي**، مكتبة لأنجلو المصرية، القاهرة، 1975.

15-عكاشة شاريف، **الصّراع الحضاري في العالم الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

16-معن خليل العمر، **التغير الاجتماعي**، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 2004.

17-مغربي عبد الغني، **الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون**، (تر: محمد شريف بن دالي حسين)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1988

18-مزيان عبد المجيد: **النظرية الاقتصادية عن ابن خلدون وأسسها في الفكر الإسلامي والواقع الاجتماعي**، مؤسسة الوحدة، الكويت 1981.

19-قباري إسماعيل محمد، **علم الاجتماع الحضري ومشكلات التهجير والتغير** والتمية، منشاة المعارف بالسكندرية، القاهرة،1985.